

الملكة اللغوية في النظرية الخلدونية مفهومها و أهم خصائصها

د . سعيد بوخاوش

جامعة البليدة 2

Résumé :

Ibn Khaldoun est considéré comme étant l'un des grands penseurs et théoriciens arabes qui avaient posé les fondements de théories sociologiques et historiques d'excellence. Dans son œuvre, la *Muqqadima*, Ibn Khaldoun analyse la société humaine, ses composantes, ces civilisations, ses sciences, ses arts... Dans cet océan descriptif culturel, l'acquisition linguistique devient une notion de grande importance car elle permet de forger la nature de l'homme en déterminant ses dispositions innées et sa capacité à apprendre.

الملخص:

وضع ابن خلدون نظرية متكاملة في اكتساب اللغة العربية بناها على النظرة التكاملية للعمران البشري التي تتبني على تكاثف الملكات ، هذه النظرية لها أسسها ومرجعياتها وحدود تطبيقها ، ويعتبر مفهوم الملكة من أهم المفاهيم التي دقق ابن خلدون البحث فيها ، من هذا المنطلق يتحدث المقال عن ماهية الملكة بصفة عامة عند ابن خلدون و كذلك يعرض مفهوم الملكة اللسانية وخصائصها حسب رؤيته .

مدخل :

الدارس للمقدمة يتبين له أن قول ابن خلدون " أن اللغات ليست مجانا " له أهمية كبيرة، فاللغة في نظره موضوع قابل للتحليل العلمي، و ذلك من خلال تحليله للملكة اللسانية و وضع نظرية متكاملة فيها، فعلم اللغة أصيل في الفكر الخلدوني، و موضوع علم اللغة هو الملكة اللسانية بالذات، كما أنه تناول في مقدمته مسائل اللغة، و فصل في علوم اللسان العربي و علاقتها بالملكة، كما تطرق للارتباطات الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية و السياسية باللغة.

لا أدعي هنا أن ابن خلدون سبق الدراسات الحديثة أو أنه أحاط بمجمل النظريات اللسانية، أو أنه كان السباق في طرح هذه المسألة، فهذا موضوع يحتاج إلى استقراء علمي

موضوعي، و لكن حسبه أنه أدرك بحسه العلمي بعض المفاهيم و المبادئ التي لم نتوصل إليها إلا في العصر الحديث.

في بداية هذا المقال ينبغي التنبيه إلى أن ابن خلدون ليس أول عربي تحدث عن مفهوم المملكة (اصطلاحاً¹)، فقد سبقه علماء كثيرون.. مثل: الفرابي (٢٦٠ - ٣٣٩) في كتابه " الحروف " و " كتاب الألفاظ المستعملة في المنطق "، و ابن مسكويه (٣٢٠ - ٤٢٨) في " تهذيب و تطوير الأعراق "، و إخوان الصفا و خلان الوفا (عاشوا في القرن الرابع الهجري) و قد بسطوا القول في اللغة و ملكتها في رسائلهم، و ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨) في كتابه " البرهان من كتاب الشفاء " و في كتابه: " الإشارات و التنبيهات " و في كتابه " الحدود " و كذلك أبي إسماعيل عبد الله الأنصاري الهروي (ت ٤٨١) في كتابه: " منازل السائرين "، و ابن رشد (ت ٥٩٥) في كتاب: " المقولات "، و في: " تلخيص تلخيص كتاب البرهان "، و فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦) في: تفسيره الكبير " مفاتيح الغيب " و كذلك سيف الدين الآمدي (ت ٥٦١) في كتابه: " المبين في شرح ألفاظ الحكماء و المتكلمين "، و ابن النفيس (ت ٦٨٧) في كتابه: " المختصر في علم الحديث النبوي " و ابن القيم (ت ٧٥١) في كتابه: " الروح " و " مدارج السالكين "، و أبو حيان التوحيدي (ت: ٤١٤ - ١٠٢٣ م) في كتابه: " الإمتاع و المؤانسة " و أبو حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥) في كتابه: " إحياء علوم الدين "، و في كتاب مستقل سماه: " معارج القدس في مدارج معرفة النفس " و غيرهم من العلماء..

إلا أن رؤية ابن خلدون تعتبر خلاصة معارف سابقيه، فقد توسع في الحديث عن المملكة و فصلها بدقة، و عدد خصائصها، و وضح أهميتها. و قبل أن نعرض لتعريف ابن خلدون للملكة يجب أن نتعرف على مفهوم المملكة لغة و اصطلاحاً في التراث العربي بصفة عامة، ثم نتعرف على مفهوم المملكة عند ابن خلدون و خصائصها و نقارن ذلك مع الفكر اللغوي الغربي و العربي الحديثان.

الملكّة في اللغة و الاصطلاح :

● الملكّة لغة: المعنى العام لمادة " ملك " هو القوة و الشدة حسياً و معنوياً، نجد هذا في معظم المعاجم التراثية بدأ بمعجم " العين " للعلامة الخليل ابن أحمد، و ابن فارس في: " مقاييس اللغة " و ابن جني في: " الخصائص " و مروراً بالصحاح و انتهاء بالقاموس و شرحه: التاج.. و لكن قد نجد لها معان مولدة مثل الطبع و السجية و العادة و هي تفسيرات اصطلاحية.

• الملكة في الاصطلاح: مر مصطلح الملكة بعدة أطوار في تراث العربية بدأ من تشكله الأولى عبر أقدم النصوص وخاصة الآيات والأحاديث النبوية و مروراً بالمعاجم الأولى، ثم تأثير الترجمة من اللغات الأخرى إلى العربية و انتهاء بمرحلة التنظير العلمي لصياغة المصطلح، و الذي تناوله عدد من العلماء في عدة بحوث نظرية المعرفة و مصادرها، مثل العقل و النقل والنفس و الوحي و العلم و النظر و المعارف و غير ذلك. ثم استقر على صورته فيها، و التي اتضحت بجلاء في مجالات متعددة في شتى العلوم، و نجد العلماء في الأخير استعملوا هذا اللفظ لبيان معان عدة كالطبيعة، و الطبع و القوة و الفعل و العادة والفطرة و الاستعداد و السجية و الغريزة القدرة اللغوية.²

أهمية الملكة عند ابن خلدون:

اهتم ابن خلدون في مقدمته بمفهوم الملكة اهتماماً غير عادي، تبرزه النصوص العديدة التي عالج فيها الملكة في بحوثه المتعلقة بال عمران البشري، و ذلك راجع إلى أنه يرى أن العلم و التعليم طبيعي في العمران³، لأن الإنسان يتميز عن سائر الحيوان بالعقل و الفكر، " فلا يفتر عن التفكير طرفة عين.. و عن هذا الفكر تنشأ العلوم و ما قدمناه من الصنائع "⁴.

و لكن جملة الصنائع تحتاج إلى نظر و تطبيق، إلى علم و ممارسة.. و بالتالي فهي ملكات فهو يقرر: " أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي و فكري، و بكونه عملياً هو جسماني محسوس، و الأحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب... فالملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل و تكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته "⁵. فهي مهارة يكتسبها المرء في أمر فكري عملي، مع وجود استعمال فطري. و هذا خاص بجملة الصنائع⁶ عامة.

و قبل الحديث عن الملكة اللسانية، نعرض أولاً على بعض ما جاء في المقدمة فيما يخص مفهوم الملكة العام⁷. ففي الفصل الذي عقده البيان: أن الصنائع تكسب صاحبها عقلاً، و خصوصاً الكتابة و الحساب " تتبع ابن خلدون هذه العلاقة بالإشارة إلى أن خروج قوى النفس من القوة إلى الفعل يكون " بتجديد العلوم و الإدراكات عن المحسوسات أولاً، ثم ما يكتسب بعدها بالقوة النظرية إلى أن يصير إدراكاً بالفعل و عقلاً محضاً، فتكون ذاتاً روحانية، و يستكمل حينئذ وجودها، لذلك وجب أن يكون كل نوع من العلم و النظر يفيد عقلاً مزيداً، و الصنائع أبداً يحصل عنها و عن (ملكتها) قانون علمي مستفاد من تلك (الملكة)، فلهذا كانت الحنكة و التجربة تفيد عقلاً، و الحضارة الكاملة تفيد عقلاً، لأنها مجتمعة من صنائع.. "⁸.

و حين بحثه في العلوم الشرعية، استعان أيضا بمصطلح الملكة على غرار العلاقة الموجودة بين الصنائع و العمران، فهو يرى أن " الإيمان تصديق حكيم⁹.. و إنما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس، كما أن المطلوب من الأعمال و العبادات أيضا حصول (ملكة) الطاعة و الانقياد و تفرغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود.. و الفرق بين الحال و العلم في العقائد فرق ما بين القول و الاتصاف.. و من الناس من يحصل له مع مقام العلم و الاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله تعالى مقام آخر أعلى من الأول، و هو الاتصاف بالرحمة و حصول (ملكتها).. و ليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل و يتكرر مرارا غير منحصرة، فترسخ (الملكة) و يحصل الاتصاف و التحقيق، و يجيء العلم الثاني النافع في الآخرة، فإن العلم الأول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى.. المطلوب في التكليف كلها حصول (الملكة) راسخة في النفس يحصل عنها علم اضطراري للنفس، هو التوحيد.. و هو مراتب.. أعلاها.. الإيمان الكامل الذي لا يفارق المؤمن معه صغيرة و لا كبيرة، إذ حصول (الملكة) و رسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين.. و بهذه (الملكة) و رسوخها يقع التفاوت في الإيمان.

و في المباحث الدقيقة التي عالج فيها ابن خلدون التعليم و العلوم و أثرها في العمران البشري نجد لمصطلح (الملكة) مكانة مركزية، فقد عارض التعليم عن طريق المختصرات فقال: " (فالملكة) الحاصلة من التعليم من تلك المختصرات إذا تم على سداده و لم تعقبه آفة، فهي (ملكة) قاصرة عن (الملكات) التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة، بكثرة ما يقع في تلك من التكرار و الإحالة المفيدتين لحصول الملكة التامة، و إذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته، كشأن هذه الموضوعات المختصرة"¹⁰، و الأمر نفسه عند حديثه عن ملكة الطب و النجارة و الحدادة و الخياطة و غيرها من الصنائع الأخرى.

و هكذا نخلص إلى أن موضوع الملكة لم يفارق ابن خلدون في كتابه العبر عامة و المقدمة خاصة، في كل موضوع مما يتعلق بالعمران البشري العلمي و الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي و التاريخي و غيرها من ميادين الحياة فالعلم و العمل متداخلان يؤديان إلى حصول الملكات.

و بعد أن بينت أن موضوع الملكة يكتسي أهمية كبيرة عند ابن خلدون أحدد الآن مفهوم الملكة في نظره ليتسنى فيما بعد فهم الملكة اللسانية كمصطلح مركب.

الملكة وخصائصها عند عبد الرحمان بن خلدون:

إن الملكة¹¹ في نظر ابن خلدون، صفة راسخة في النفس تمكن الإنسان من القيام بالأعمال العائدة إليها. و الإنسان مهياً لاكتساب الملكات. يقول ابن خلدون: " إن الملكات صفات للنفس و ألوان، فلا تزدهم دفعة. و من كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات و أحسن استعدادا لحصولها¹²". و تتجلى الملكة في مجال معين، عبر إتقان الإنسان لهذا المجال: " وذلك أن الحذق في العلم و التفنن فيه و الاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه و قواعده و الوقوف على مسأله واستنباط فروعه من أصوله. و ما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلًا "¹³.

إن الملكة التي تتيح للإنسان القيام بشيء ما و إتقانه هي المعرفة بمبادئ هذا الشيء و بقواعده. فالملكة إذا هي الإمام بقوانين و مبادئ. و هي صفة في النفس. وتبدو نظرة ابن خلدون إلى الملكة من حيث أنها صفة في النفس من خلال استعماله الكلمات التي تتم عن الحالة في كلامه عن الملكة:

أ- الملكة مستحكمة:

" و اعلم أن فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب، و لذلك جعلوه ديوان علومهم و أخبارهم و شاهد صوابهم وخطئهم، و أصلا يرجعون إليه في الكثير من علومهم و حكمهم، و كانت ملكته مستحكمة فيهم شأن ملكاتهم كلها "¹⁴.

ب- الملكة جيدة:

" و قد قدمنا أنه لا بد من كثرة الحفظ لمن يروم تعلم اللسان العربي و على قدر جودة المحفوظ و طباقته في جنسه و كثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عنه للحافظ ".
ج- الملكة راسخة:

" لأن الأفعال الاختيارية كلها ليس شيء منها بالطبع، و إنما هو يستمر بالقدم و المران حتى يصير ملكة راسخة فيظنها المشاهد طبيعية¹⁵ " و يقول في موضع آخر: " فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ و الاستعمال، و يزداد بكثرتهم رسوخا و قوة "¹⁶.

د- الملكة تامة و ناقصة:

" و صاحب الملكة في العبارة و الحفظ مستغن عن ذلك، بتمام ملكته، و إنه صار له فهم الأقوال من الخط، و المعاني من الأقوال، كالجلبة الراسخة، و ارتفعت الحجب بينه و بين المعاني ". و يقول في موضع آخر: " وجودتها و قصورها بحسب تمام الملكة أو نقصها "¹⁷.

هـ - الملكة مستقرة:

" اعلم أن صناعة الكلام نظما و نثرا إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، و إنما المعاني تبع لها و هي أصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم و النثر، إنما يحاولها في الألفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب، ليكثر استعماله و جريه على لسانه، حتى تستقر له الملكة في لسان مضر " ¹⁸ و يقول في موطن آخر: " إن حصول ملكة اللسان العربي إنما هو بكثرة الحفظ من كلام العرب.. حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة على المقاصد " ¹⁹.

الملكة مكتسبة: ²⁰ و هذا عين نظريته العامة و أساس فهمه للملكات .

فالملكة، إذا، صفة في النفس لها خصائص عدة، فهي مستحكمة و جيدة و قاصرة و راسخة و تامة و ناقصة و مستقرة... ومكتسبة و ذلك لكي يتاح للإنسان القيام بالأفعال العائدة إليها و إتقانها.

الملكة اللسانية و خصائصها عند ابن خلدون:

بعد أن تبين أهم صفات الملكة عند ابن خلدون أعرج على الملكة اللسانية عنده بوجه خاص .

- اللغة ملكة.

فيما يختص بموضوع المقال فاللغة قبل كل شيء ملكة كلامية أو ملكة في اللسان كما يقرره ابن خلدون ، إذ يكرر الإشارة إلى ذلك في أكثر من موضع في مقدمته و أمثل لذلك بنصين ، يقول:

" و قد تقدم لنا أن اللغة ملكة في اللسان " ²¹. و يقول : " و اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة إذ هي ملكات في اللسان " ²². فاللغة إذن ملكة عند ابن خلدون.

- مفهوم الملكة اللسانية:

و يترتب على ذلك أن الملكة اللسانية، يقصد بها: " قدرة اللسان على التحكم في اللغة و التصرف فيها " و هذا الاصطلاح يتفق مع تفسيره للملكة بشكل عام، أي ملكات جميع الصنائع، " كما لا يختلف مع تفسير المعاجم ²³ لمعنى الملكة عموما، فهي تعني احتواء الشيء مع الاستبداد به، لكن هنا ملكة لسانية، فهي منسوبة إلى " اللسان " الذي هو محلها ²⁴، و تصير ملكة له إذا احتوى اللغة و تمكن منها و استبد بها " ²⁵، فكان ابن خلدون صاغ هذا الاصطلاح من خلال ما عرف به اللغة التي هي: " عبارة المتكلم عن مقصوده، و تلك العبارة فعل لساني.. فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها و هو اللسان " ²⁶، فلما كان الهدف من تعلم اللغة، هو تمكين المتعلم من فهم التعبير السليم الواضح الذي يستمع إليه، أو ينطق به، أو يقرؤه، أو يكتبه، أو بصفة عامة: تحقيق الوظائف العامة للغة، فإن ذلك لا يتم إلا إذا امتلك القدرة على التكلم و المهارة فيه، أو بتعبير ابن خلدون: " حصل الملكة اللغوية " .

- خصائص الملكة اللسانية:

تقدم أن الملكة اللغوية شأنها شأن باقي الملكات، يقول ابن خلدون: " أعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة " ²⁷ فهي تملك نفس خصائص الملكات الصناعية، إلا أن ابن خلدون - لأهمية الملكة اللغوية، و قبل أن يصوغ منهجه في اكتساب اللغة - توسع في خصائصها، ليسهل تقبل منهجه و تحقيقه ميدانيا كما سيتبين لاحقا.

و أهم خاصية تميز هذه الملكة، كونها مكتسبة: هل اللغة فطرية أم مكتسبة ؟. هذا السؤال يطرح عند اللسانيين و فقهاء اللغة منذ القدم ، وظهرت إجابات متعددة أدت إلى بروز نظريات حول نشأة اللغة و كذلك اكتساب اللغة ، يجمع ابن خلدون بين التجربة و العقل: أما كون اللغة مكتسبة فيدل لذلك نقلا و عقلا، فالله تعالى يقول: " و الله أخرجهم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون " ²⁸، فهو يرى أن جل المعارف مكتسبة بالأدوات التي زود الله بها خلقه، حتى أنه يفسر قوله تعالى: " اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ و ربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم " ²⁹ بقوله: " أي أكسبه من العلم ما لم يكن حاصلًا له، بعد أن كان علقه و مضغة، فقد كشفت لنا طبيعته و ذاته، ما هو عليه من الجهل الذاتي و العلم الكسبي " ³⁰، فهو يبين بهذا: " أن الإنسان جاهل بالذات عالم بالكسب " ³¹، و اللغة هي إحدى الظواهر التي يولد الإنسان و هو عار منها، فهي شيء لا يكون موجودا مسبقا، بل يصبح موجودا بالاكتساب، و هذا ينطبق عنده على جل المعارف التي هي " كسبية و ليست فطرية، لأن الإنسان يولد و هو يخلو من كل معرفة ! و لكنه مزود باستعدادات " ³² و معنى ذلك: " أن العلاقة بين الأفكار و حقيقة الأشياء هي علاقة بعدية (بعد التجربة) و ليست قبلية (فطرية) " ³³.

لكن التجربة وحدها لا تكفي في اكتساب المعارف بما في ذلك اللغة، لذا نجد ابن خلدون ركز على أهم ميزة للإنسان وهي العقل ³⁴، بمراتبه الثلاثة: التمييزي، و التجريبي، و النظري، و أنه الأساس في اكتساب الملكات العامة، فهو يجمع بين العقل و التجربة في حصول الملكات ³⁵.

اللغة بين الطبع و الصنع:

و رغم جمعه بين العقل و التجربة في اكتساب الملكات، إلا أنه يطرح إشكالية الملكة و الطبع، و يقرر أن الملكة اللسانية فعل اختياري غير غريزي و لا فطري، لكن كثير من الناس ³⁶ يتوهم أن امتلاك اللغة طبع في الإنسان.. فيرد عليهم ابن خلدون بقوله: " الأفعال

الاختيارية كلها ليست شيئاً من الطبع، وإنما هو يستمر بالقدم و المران حتى يصير ملكة راسخة، فيظنها المشاهد طبيعية " ³⁷، فهناك فرق واضح بين الملكة و الطبع، فالملكة مكتسبة، و تكون شعورية و إرادية حال الاكتساب والتعلم، ثم تفقد هذه الخاصية بمجرد أن يحتويها اللسان، و تصير مهارة. أما الطبع فهو فطري غريزي منذ البداية، ولد مع الإنسان. و هذه النظرة العلمية، قررها علم اللغة العام (اللسانيات) في العصر الحديث، حيث يعتبر: " أن اللغة ملك من يتعلمها، لا أثر فيها للوراثة و الجنس، فهناك فرق بين الاستعداد للكلام و الكلام نفسه " ³⁸.

فابن خلدون بمنهجه التجريبي، توصل إلى أن بين الملكة و الطبع فرق واضح - فالمنطق الصحيح في العرب ليس جلبة و إنما هو ملكة - ، لذا فهو شديد اللهجة في الرد على من خالفه في هذا الموضوع ³⁹، فيقول: " و لذلك يظن كثير من المغفلين، ممن لم يعرف شأن الملكات، أن الصواب للعرب في لغتهم إعراباً و بلاغة أمر طبيعي.. و ليس كذلك، و إنما هي ملكة لسانية في نظم الكلام، تمكنت و رسخت، فظهرت في بادئ الرأي أنها جلبة و طبع " ⁴⁰، فالعربية

الفصيحة ⁴¹ في نظر ابن خلدون، أو كلام أهل الجاهلية ليس طبعاً جاهزاً دون اكتساب و تعلم، و إنما هو ملكة تكونت و تمكنت و رسخت فيهم بالاكتساب مع و جود الاستعداد، فصارت لا شعورية، " ذلك أن الملكات إذا استقرت و رسخت في محلها ظهرت كأنها طبيعية و جلبة لذلك المحل " ⁴².

لكن قد يتبادر إلى الذهن أن ابن خلدون يجعل اكتساب ملكة اللغة أمراً سلوكياً، آلياً ⁴³، مرتبطاً أساساً بالمحيط اللغوي، حيث تأخذ اللغة على سبيل المحاكاة، و التقليد، و المعاشة المستمرة، و تكرر السماع.. لكن الحقيقة غير ذلك ⁴⁴، لأن ابن خلدون - كعادته في المقدمة و في كتابه العبر - يجعل أفكاره في موضوع واحد، موزعة على فصول عدة، فقد يرى نقصاً في موضوع ما، فيكمل ذلك و يستدركه في فصول أخرى لاحقة، فلكي نتعرف على آرائه كاملة، يجب أن لا نتوقف عند فصل أو فصلين، بل نتابع كل الفصول حتى نستخرج آراءه كاملة غير مبتورة ⁴⁵.

و من خصائص الملكة عند ابن خلدون، " أنها صفة راسخة تحصل عند استعمال ذلك الفعل و تكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته " ⁴⁶، و اكتساب الملكات يحتاج إلى تكرار الأفعال، لذا نجده يركز على هذا الجانب فيقول: " .. لأن الفعل يقع أولاً و تعود للذات منه

صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، و معنى الحال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة " 47،

و إذا كان لتكرار الأفعال أهميته في رسوخ الملكات فإن الاستمرار، و تتابع الأفعال المكتسبة هو الذي يصير الفعل يشبه الطبع، ذلك أن الانقطاع يؤدي إلى النسيان و عدم رسوخ الملكة.. و من خصائص الملكة أيضا: أنها لا تتم دفعة واحدة، بل لا بد من وقت و زمن معين.. و مما سبق، يمكن أن نلخص خصائص الملكة كما يراها ابن خلدون على النحو الآتي:

١. أنها مكتسبة و ليست فطرية، و للعقل دور بارز في اكتسابها.
 ٢. أنها تحصل بتتابع الفعل و تكراره.
 ٣. أنها تحصل بالاستمرار و التواصل في الأفعال.
 ٤. الملكة تتحول إلى صناعة في أمر يشترك فيه الفكر إلى جانب العمل.
 ٥. لا تكمل الملكة كونها عملية فكرية إلا بالمباشرة و الممارسة.
 ٦. كلما كان الأصل في اكتساب الملكة راسخا و متقنا، كان اكتساب الملكة أكثر رسوخا و إتقانا.
 ٧. توجد علاقة وثيقة بين اكتساب الملكة و الحذق بها لدى المتعلم، و بين طرق تعليمها و إذا دققنا النظر في مفهوم الملكة و خصائصها عند ابن خلدون، فإنه يتبين لنا مدى أهميتها و دورها في اكتساب اللغة، و قد تتضح هذه الأهمية أكثر، في عرض منهجه و تطبيقه لإعادة اللغة العربية إلى التداول و الاستعمال.
- إن ابن خلدون من منطلق نظريته الاجتماعية، توصل إلى أن اللغة أهمية بالغة في نظرية العمران البشري، لهذا أولاه عناية كبيرة، و نظريته في الملكة اللغوية لها مفاهيم متأصلة في فكره الاجتماعي، و لا يحتاج قارئ المقدمة إلى وقت طويل حتى يدرك ذلك، فالملكة اللسانية ميزة إنسانية تختص بالجنس الإنساني من دون غيره من الكائنات، لهذا أدرك ابن خلدون أن اللغة موضوع جدير بالاهتمام العلمي، لا يحق أن يغفله كل من يدرس الاجتماع البشري، و يؤكد ذلك بقوله " ليست اللغات و ملكاتها مجانا "، فاللغة من هذا المنطلق (الملكة) موضوع جدير بالدراسة .

الهوامش:

¹ لابن خلدون مصطلحات دقيقة ينبغي فهمها داخل السياق، مع ربطها بالبيئة الزمانية و المكانية، من ذلك علم العمران البشري، فهو يقصد بالعمران: العمارة و التعمير (الاجتماع البشري في مصر من الأمصار)، أما العمران البشري: فيعني به الحياة الاجتماعية و ما ينتج عنها أو يرافقها من مظاهر اجتماعية و سياسية و اقتصادية و

ثقافية، أما علم العمران : فهو علم دراسة التجمعات البشرية و الظواهر الاجتماعية، " أي دراسة كل ما يحدث في العمران البشري من ظواهر خاصة، بما في ذلك الاتصال اللغويو تكمن أهمية معرفة المصطلحات الخلدونية في إطار الزمان و المكان، في فهم مراد ابن خلدون في حدود مقصده منها، لأن القراءات الخاطئة لهذه المصطلحات و غيرها، لا سيما الناتجة عن النشرات المصرية القديمة، أو البيروتية المترجمة عن اللغات اللاتينية، أفسدت الكثير في الفكر الخلدوني، و لا أدل على ذلك من حديثه عن العرب و الأعراب، و الذي أسىء فهمه و تأويله مما أدى إلى الطعن في قيمته أو عرويته ... ينظر: العرب و ابن خلدون، أبو القاسم محمد كرو، العرب و ابن خلدون (بيروت: مكتبة الخياط، د.ط، ١٩٧١ م و قد ذكرت هذه الملاحظة لعلاقتها الوطيدة بالمقال ، لا سيما ما يتعلق بموضوع ضرورة إعادة تداول اللسان العربي ومصطلح الملكة ..

² ينظر: السيد الشرقاوي: الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي (القاهرة: مؤسسة مختار، ٢٠٠٢م) و فيه تفصيل لمسيرة لفظة ملكة في التنظيرين اللغوي و الفكري عبر التاريخ، و استشهد بمجموعة من أقوال أهل العلم، و عاد في ذلك إلى ميطان وجود اللفظة في تعريفات هؤلاء العلماء... فأحسن و أجاد.

³ ينظر: ابن خلدون، المقدمة، ص: ٦٣٢، حيث عقد فصلا كاملا تحت عنوان: " في أن العلم و التعليم طبيعي في العمران البشري ".

⁴ المقدمة، ص: ٦٣٢.

⁵ ابن خلدون، المقدمة، ص: ٧٦٧، حسين بن زروق، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة، ص: ٤٠.

⁶ و المقصود بالصنائع عند ابن خلدون: " كل ما يختص بأمر المعاش، ضروري كان أو غير ضروري، و إلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصة بالإنسان، من العلوم و غيرها ".

⁷ ينظر: الملكة اللغوية في الفكر اللغوي العربي، ص: ٤٦.

⁸ المقدمة، ص: ٤٦١.

⁹ يراجع عقيدة ابن خلدون في ، ابن خلدون : الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون ، تح : ضياء الدين رجب شهاب الدين ، (الشارقة: دار الفتح، ط١ : ١٩٩٥ م) ص: ٣٠ فمذهبه مذهب الأشاعرة إلا أنه قد يخالفهم في أشياء كثيرة.. أما الإيمان عند أهل السنة فهو " قول و تصديق و عمل يزيد و ينقص.. " و هذا ما أكدته النص الموالي.

¹⁰ المقدمة، ص: ٦١٨.

¹¹ الملكة بصفة عامة، و ليس المقصود الملكة اللسانية، التي سيأتي تفصيلها فيما بعد.

¹² ابن خلدون: المقدمة، ص:

¹³ ابن خلدون: المقدمة، ص: ٦٣٣.

¹⁴ م. ن، ٧٩١.

¹⁵ المقدمة: ص: ٧٢٠.

¹⁶ المقدمة: ص: ٧٧٥.

¹⁷ المقدمة: ص: ٧٦٧.

¹⁸ المقدمة: ص: ٨٠٢.

¹⁹ المقدمة: ص: ٧٧٨.

²⁰ سأفصل هذه الخاصية عند الحديث عن الملكة اللسانية.

²¹ المقدمة: ص:

²² المقدمة: ص: ٧٦٧.

²³ ينظر على سبيل المثال: زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت:

مؤسسة الرسالة، ١٩٩٦م)، مادة: مل ك، ص: ٦٣٣، الزمخشري، أساس البلاغة، مادة: ملك، ص: ٦٠٤.

²⁴ ليس محل اللغة اللسان فقط، وإنما الجهاز الصوتي بكامله، زائد الدماغ، زائد القلب.. وهذا من باب إطلاق الخاص على العام.

²⁵ د: محمد عيد، الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٩ م) ص: ٥.

²⁶ ابن خلدون، المقدمة، ص: ٧٥٢.

²⁷ م. ن، ص: ٧٦٧.

²⁸ النمل، الآية: ٧٨.

²⁹ العلق، الآيات: ١ - ٤.

³⁰ ابن خلدون، المقدمة، ص: ٧٣١. وهذا التفسير اجتهاد منه - عليه رحمة الله -

³¹ م. ن، ص: ٧٣١.

³² دريس خضير، التفكير الاجتماعي الخلدوني (الجزائر: بن عكنون، د. م. ج، ١٩٨٣م)، ص: ١٦٩.

³³ د. محمد السعيد الكردي، ابن خلدون - مقال في المنهج التجريبي، (طرابلس: الجماهيرية العربية الليبية،

المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان، ط١، ١٩٨٤ م) ص: ١٠٨.

³⁴ ينظر: المقدمة، ص: ٦٢٩ - ٦٣٢. و مما قاله: "وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته

من الحس و الحركة.. و إنما تميز عنها بالفكر.. فهو مفكر في ذلك [أمور الدنيا و الآخرة] كلها.. و اختلاج

الفكر أسرع من لمح البصر، و عن هذا الفكر تنشأ العلوم و ما قدمناه من الصنائع" و الملكة اللغوية شبيهة

بالصناعة كما تقدم!.

³⁵ يمكن مقارنة رأي ابن خلدون، مع ما جاءت به النظريات الحديثة، خاصة: النظرية السلوكية (التي من

منظورها أن التعلم عملية ناجمة عن التفاعل بين الكائن الحي والمحيط)، و النظرية العقلية - الفطرية -

لتشومسكي (الذي تأثر بديكارت في تقديسه للعقل، إذ يعتبره منشأ الملكة اللغوية)، و كذلك النظرية

المعرفية "ليباجي" الذي جمع بين العقل والتجربة.

³⁶ و قد عارض بهذا كبار العلماء العرب، دليل على ثقته فيما توصل إليه، و من هؤلاء العلماء ابن جني الذي

يقول: "لأنه و إن لم يعلم حقيقة تصريفه بالصنعة فإنه يجحها بالقوة" و يعني ابن جني بالقوة هنا الطبع، إذ يقول

بعد هذا: "و إن لم يحسن شيئاً من هذه الأوصاف صنعة و علماً فإنه يجدها طبيعة و وهما"، و في موضع آخر

يجزم ابن جني بأن اللغة العربية بالطبع فيقول: "و إنما مكنت القول في هذا الموضع ليقوى في نفسك قوة حس

هؤلاء القوم، و أنهم قد يلاحظون بالمنة و الطباع ما لا نلاحظه نحن على طول المباحثة و السماع" ينظر:

الخصائص، ج: ٣، ص: ٢٧٦.

³⁷ ابن خلدون، المقدمة، ص: ٧٤٠.

³⁸ ينظر: محمد عيد، الملكة اللسانية، ص: ٢٦. بتصرف.

- 39 بما فيهم ابن جني في الخصائص.
- 40 ابن خلدون، المقدمة، ص: ٧٧٩ - ٧٨٠.
- 41 ويمكن تعميم الحكم على سائر اللغات.
- 42 م . ن، ص: ٧٧٩، حسين بن زروق، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية، جامعة الجزائر، ص: ٤٠ - ٤٢.
- 43 وهذا ما نجده في النظرية: البنيوية أو الشكلية، أو الهيكلية، أو التوزيعية، أو الوظيفية، أو الوصفية - وكل هذه الكلمات تفيد معنى واحد، هو الاكتفاء بالوصف أو الشكل دون التعمق في الداخل - التي تعتبر أن الإنسان آلة يقلد فقط، ويمثل هذه النظرية كل من: ليونارد بلومفيلد في أمريكا، و أندري مارتيني في فرنسا.
- 44 فإن ابن خلدون يجعل للعقل دورا بارزا في اكتساب اللغة، وهذا قد مر بنا، ونظيف هنا أمرا مهما، وهو اهتداؤه إلى ما يسمى بالمنوال أو القالب (البنية العميقة) أو الكفاءة اللغوية، يقول ابن خلدون: " .. وإنما يرجع أسلوب الكلام إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص، وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها، و يصيرها في الخيال كالقالب أو المنوال ثم ينتقي التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الإعراب والبيان فيرصها فيها رصا كما يفعل البناء في القالب أو النساج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام و يقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيه ". ينظر: المقدمة، ص: ٧٧٩. ولا شك أن مقارنة هذا الكلام، مع ما يقول به رواد المدرسة التوليدية التفريعية، وعلى رأسهم تشومسكي، الذي يركز على الإبداع الخاص بالجمل، انطلاقا من الإنسان، وهي التي تمكنه من اكتساب أي لغة بشرية على وجه الأرض، " و هو ما يعبر عنه همبولت بالجانب الخلاق في اللغة، أي أن اللغة تصدر من الداخل (المنوال) ينظر: د. عبده الراجحي، النحو العربي و الدرس الحديث، ص: ١١٩ و ما بعدها، حسين بن زروق، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة، ص: ٦٠ و ما بعدها.
- 45 ينظر: حسين بن زروق، النظريات العربية حول حصول ملكة اللغة، ص: ٥٣ و ما بعدها.
- 46 ابن خلدون، العبر، ج: ١، ص: ٦٤٣.
- 47 م . ن.